تأثير تكنولوجيات الاتصال الحديثة على سلوك الأطفال

دليلة غروبة
قسم علوم الإعلام والاتصال- جامعة عنابة

لم يشهد قطاع صناعي التطور النوعي السريع الذي شهده قطاع الإعلام والاتصال، فقد امتدت البحوث نحو كسب أكبر مساحة اتصالية لتحقيق الآنية الزمنية لنقل المواد الإعلامية، والوصول لأقصى نسبة ممكنة من الجماهير المستقبلة، وهذا ما جعل ماكلوهان يجزم بأن وسائل الإعلام والاتصال تسير بالعالم نحو حصره في حدود قرية صغيرة يتداول قاطنوها الأخبار، ولا تكاد تدب حركة في ركن من أركانها دون أن يرصدها الركن المقابل.

وتتنوع تكنولوجيات الإعلام والاتصال الحديثة تنوعا كبيرا، آخذة منابعها من الوسائل الجماهيرية التقليدية، فقد طورت البحوث التلفزة النظامية إلى تلفزة رقمية تفاعلية تتسم إلى جانب صفة التفاعلية بأخرى تحققها القفزة نحو فتح أفاق العرض والتنوع TP^1PT.

وتطور الانترنت الذي أبدع أساسا أبان الحرب الباردة في نهاية الستينيات، للحفاظ على المعلومات المتضمنة في مراكز إحصائية أمريكية إلى استعمال في كافة المجالات الأكاديمية والصناعية وغيرها، متسما بإلغائه للحدود المكانية، محقّقًا بدوره التفاعل والآنية. ويعد الإعلام الآلي من بين وسائل الاتصال الأكثر تداولا واستعمالا، فمن المعدات الميكانوغرافية إلى أجهزة الإعلام الآلي الحديثة خطت البحوث خطوة عملاقة في عالم المعلوماتية.

أما مجال السمعي البصري، فقد أخذت وسائله منعرجا جديدا نحو عالم مناهج التدريس بكافّة أطواره محقّقة إلى جانب السمة الجماهيرية تفاعلاً شخصيا وجماهيريا محدودا TP^2PT.

إنّ هذه التكنولوجيات الحديثة أثبتت تأثيرها الفعال على الحياة الاجتماعية التفاعلية وأصبحت بمثابة الفاعل الاجتماعي في عالم حديث يعد مالك المعلومة ضمنه المجسد للقوة والسيطرة، وهي ضرورة حققتها وظائف تكنولوجيات الإعلام والاتصال الحديثة، المتحكمة في مجالات ثلاث أساسية: الزمن والمكان واللامرئيات TP^3PT.

إنه التأثير على الاتجاهات والسلوكات بخلق أنماط جديدة للعيش والتأقلم الاجتماعي، وعادات تروج لتصبح جزءا من الواقع اليومي.

ولا يقتصر التأثير على الكبار فحسب بل يمتد هذا التأثير ليصل الأطفال، وسنتطرق فيما يلي لتأثير بعض تكنولوجيات الإعلام والاتصال كالتلفزة الرقمية التفاعلية والانترنت والإعلام الآلي والوسائل السمعية البصرية على الأطفال.

إنّ التلفزة الرقمية التفاعلية هي تلفزة تجمع بين الإشارات السمعية البصرية والإعلام الآلي لضمان صورة وصوت رفيعتا المستوى وتوفير علاقات تفاعلية تبادلية بين المرسل والجمهور.

إنّ هذا التفاعل تحققه اتجاهات نحو نمط جديد من البرامج يعتمد على إشراك المشاهد مباشرة فيها، ليكون فاعلا إيجابيا تؤخذ آراؤه واقتراحاته مأخذا جادا.

من أكثر هذه البرامج رواجا تلك المتخصصة في الألعاب الترفيهية التثقيفية للأطفال، والمعتمدة على مشاركاتهم الهاتفية.

فلجوء الأطفال لسماعات الهواتف للمشاركة في هذه البرامج هو نتيجة تحفيز مادي يظهر من خلال الهدايا المخصصة للفائزين من قبل المنتجين أو الممولين والمؤسسات الراعية.

فالتحفيز المادي بمختلف أساليبه وأشكاله يعد من أكثر العوامل وراء استقطاب المشاركات الهاتفية بين الأطفال، إلا أن الإقبال الكبير لا تقتصر دوافعه على محفزات مادية، فمجال التعبير الشفهي الذي توفره هذه الحصص، من خلال قناة واسطة تتسم بالجماهيرية وبلوغ أعداد كبيرة من المتتبعين، تخلق لدى الطفل الرغبة في الظهور والاستعراض أيا كانت نتائج المشاركة، فوصول صوت الطفل وبالتالي هويته إلى أقرانه في القسم، هو استعراض مثالي لقدراته الاتصالية، وعامل مهم يزيد من شعبيته ويجذب نحوه الفضول وبالتالي الاهتمام.

وتتحقق التفاعلية في التلفزة الرقمية من خلال حصص جديدة كانت التلفزة الهولندية هي السباقة إلى اعتمادها، ثم امتدت كظاهرة إعلامية إلى باقي تلفزيونات العالم.

فالحصص من نوع (التلفزيون الواقعي) الناقلة لكواليس أحداث من الواقع المعيش، عرفت رواجا كبيرا لدى الأطفال والمراهقين. إذ تعمد على إبراز المراحل التي كانت ولوقت غير بعيد، وتحديدا قبيل سنة 2000، من الكواليس البعيدة كل البعد عن المشاهدة المباشرة بالصوت والصورة وعلى امتداد الـ 24 ساعة، كمراحل نشأة فريق غنائي محترف أو بروز فنان إلى الساحة الفنية منذ أولى خطوات الاختيار عن طريق الكاستينغ وهذا على شاكلة حصص(الستار أكاديمي) و(بوب ستار) التي تداولتها التلفزيونات في العالم بأسره، وقد حققت حصة (لوفت ستوري) التي بثتها قناة أم 6 الفرنسية سنة 2001 كسابقة إعلامية في التلفزيون الواقعي أرقاما خيالية في المشاركة عن طريق الرسائل القصيرة والمينيتل والهواتف، وهي مشاركة لاختيار أفضل المشاركين في الحصة والذين يتمتعون بخصائص معينة تجعل الجمهور يرغب في استمرارهم على الشاشة لأقصى وقت ممكن، وقد قدمت القناة نسبة مشاركة كبيرة في إحدى عمليات البثّ المباشر للحصة أثناء إقصاء أحد المشاركين وصلت 80% من حجم الجمهور المتتبع، والذين كانت نسبة 60.65% منهم تقل أعمارهم عن16 سنة.

فالرغبة بالتشبه بالمشاركين الآتيين أصلا من أوساط عامة، أو الفورية في نقل كافة التفاصيل الآنية بمفارقاتها وخفاياها، والرغبة الجانحة في إتباع منحى النجومية السهلة، جعلت الإقبال على هذه الحصص يصل أعلى المستويات.

إلا أن إجماع المحللين المختصين في البرامج السمعية البصرية يذهب إلى التنبؤ بالأفول السريع لنجم هذا النوع من الحصص التي تتلاشى لمجرد تكرار عرضها لموسمين متتاليين، لإشباعها فضول المشاهدين من أول العروض وكذا لاستحالة اتصافها بالعفوية والتلقائية بعد عروضها الجماهيرية الأولى.

و لولا هذه الخصائص لدق ناقوس الخطر أمام خلقها لمدمنين أغلبهم من الأطفال والمراهقين، وهم مدمنون يمتد استهلاكهم للمواد الإعلامية المعروضة من قبل تلفزيون الحقيقة، لأطول فترات ممكنة خاصة وأنّ فترات البث تمتد على مدى 23 ساعة من اليوم وتخصص لها قنوات رقمية مستقلة.

أما **الأنترنت** فهو تجمع عالمي لشبكات الكومبيوتر وكل شبكة تتكون من مجموعة متنوعة من أجهزة الكومبيوتر من أبسطها إلى أكثرها تعقيدا.

وقد لاقت الشبكة النجاح الكبير بفضل الميزانيات الضخمة المخصصة لمخابر البحث لتطوير الشبكة إضافة إلى السرعة الخارقة في معالجة المعلومات وتطور أنظمة التشغيل المستعملة ووصل أشخاص ومؤسسات من مواقع مختلفة من العالم مانحًا إياهم فرصة التعامل في ميادين مختلفة وبتكاليف أقلّ.

إنّ الانترنت كأحد أحدث تكنولوجيات الإعلام والاتصال، أثبت استقطابه لأعداد هائلة من الجمهور بمختلف فئاته؛ فمحركات البحث المتضمنة لقاموس بأعداد هائلة من المواقع تسمح وبمجرد كتابة كلمة دالّة بالالتحاق بالعناوين المناسبة؛ وهذا ما يجعل الأطفال ينتهجون الطريقة ذاتها لولوج المواقع المختلفة.

فإذا نظرنا للأمور من الزاوية الإيجابية نستطيع أن نجزم بالدور الكبير لهذه الوسيلة في تفعيل التثقيف والتوجيه والتعليم لدى الأطفال، فيسر استعماله يوجههم نحو إثراء معلوماتهم وتكوين شخصياتهم المستقلة معبرين عنها في مواقع خاصة تضع في لوحة العرض كافة اهتماماتهم وتوجهاتهم على أصعدة مختلفة، كموقع صغار البرلمانيين الفرنسيين الذي استقطب آلاف الزوار الصغار من العالم بأسره ممهدا لهم آفاقا للحذو بمنهجه لا سيما إثر اعتماده أفكارا جديدة بشان الاستعمال الأمثل لتكنولوجيات الاتصال الحديثة.

لكن سهولة الاستعمال المتبوعة عادة برغبة فضولية لدى الصغار في الذهاب المستمر نحو المجهول، تأخذهم إلى اللحاق بمواقع تبشيرية تحريضية لا أخلاقية تحث على العنف والجريمة والانحراف بكافة أساليبه.

ويعد **الإعلام الآلي** جملة عقول إلكترونية بواسطتها يمكن تخزين وعرض آني لملايين المعلومات والمعطيات، وقد أثبت جدواه في ميادين عديدة من الحياة المعاصرة، بل أصبح جزءا لا يتجزأ منهاTP^4PT.

وقد اعتمدت مدارس تجريبية فرنسية منهج الاستعمال الضروري لأجهزة الإعلام الآلي في صيرورة العملية التلقينية التدريسية قدرة في طورها الإكمالي؛ فتم بموجبها تعويض المحفظة والكراريس والأقلام التقليدية بأجهزة محمولة للإعلام الآلي ترافق الطفل من المنزل إلى المدرسة.

إلا أنّ الاعتماد الكلي على هذه الأجهزة، جعل المختصين من علماء نفس وتربويين يجزمون بأن الأطفال فقدوا القدرة على الكتابة اليدوية للاستعمال اليومي للوحة المفاتيح، كما أن قدرتهم على التذكّر أقلّ بكثير من قدرة أقرانهم من المدارس العادية المتبنية لاستعمال الإعلام الآلي كمقياس دراسي مستقل بذاته.

وتعد الألعاب الإلكترونية من بين أكثر ما يجلب الأطفال إلى عالم الإعلام الآلي، فعالم الصور ذات الأبعاد الثلاثية تجعل الطفل يتموضع في شخصية أبطالها ويشعر بغبطة الانتصار وبالرغبة الكبيرة في الفوز في حال الخسارة وتحقيق أرقام قياسية شخصية وجماعية تتطلب تكرار المحاولات ومن ثمة قضاء وقت الفراغ بأكمله وحتى أوقات ضرورية للراحة أو بالفترات الدراسية، قضاؤها أمام أجهزة الإعلام الآلي.

إنّ اتجاه عدد كبير من الأطفال والمراهقين إلى الألعاب الإلكترونية، أفرز نوعا آخر من الإدمان، لا تقلّ خطورته على الإدمان على المخدرات، وهذا ما جعل تجارة الألعاب الالكترونية تعرف ازدهارا كبيرا في أوربا والولايات المتحدة واليابان، فقد تخصصت قاعات ألعاب في هذه الدول في عرض أحدث أنظمة التشغيل للألعاب، مسجلة أرقاما خطيرة دعت الحكومات والسلطات الرسمية إلى اتخاذ تدابير وإجراءات تنظم الاستغلال التعسفي للأطفال في هذا الميدان، وهي إجراءات جعلت فرنسا على سبيل المثال تضع قوانين صارمة تحدد أوقات عمل هذه القاعات والسن الأدنى لروادها والذي يبدأ من 12 سنة.

إلا أنّ الرقابة العمومية لا تكفي وحدها طالما أنّ أنظمة التشغيل متداولة البيع وبأسعار في متناول الأطفال، هنا تظهر جدوى العائلة في فرض سلطتها التوجيهية لردع الأطفال عن هذا الإدمان الجديد، والعودة بهم إلى اهتماماتهم الدراسية.

و بخصوص **أجهزة السمعي البصري،** فيمكن أن نمس مدى امتداد استعمالاتها من الإطار الجمهوري إلى آخر مؤسساتي أو شخصي، فقد اعتمدتها مراكز التعليم عن بعد من خلال إرسال أشرطة تسجيلية إلى طلابها من كافة الأطوار التعليمية، مثبتة نجاحا كبيرا في تمرير الرسائل البيداغوجية مقارنة بطرق الإرسال البريدي المكتوب TP^5PT.

ويتحقّق التفاعل النوعي من خلال هذه الطرق بتسجيل الطفل أو المراهق لنفسه كإجابة على الأسئلة الموجهة له وإعادة إرسالها للأستاذ المعني متخطيا حواجز نفسية ترتبط أغلبها بالخجل وعدم القدرة على التعبير أمام الجمهور.

تستعمل طرق العرض بأنظمة الفيديو وأشرطة التسجيل بالإضافة إلى ما سبق ذكره، كدعائم شارحة بالصوت والصور لما يقدمه الأستاذ من معلومات نظرية، وهو ما أثبت نجاعة كبيرة في ترسيخ المعلومات في ذاكرة الأطفال.

إنّ امتداد هذه الأجهزة إلى الاستعمال الجماهيري، هو نتاج البحث المستمر في تطويرها للتقليص من حجمها وزيادة فرص استعمالها، وهو ما أثرى مناهج التدريس، فجهاز الكاميسكوب أدمج كدعامة لتدريب الأطفال في فرنسا على إنجاز روبورتاجات ميدانية شخصية، تظهر من خلالها مواهبهم في المجال الإعلامي، وتنمي فيهم روح المغامرة وسعة الخيال.

تمكن هذه الأجهزة عن طريق قدرتها الهائلة على تخزين نظامي ورقمي لملايين الصور من أن تدعم المناهج الدراسية بالمواد المجسدة للنظري، (سي دي روم، أشرطة الليزر، ...). وتلعب وسائل الإعلام الجماهيرية كالتلفزيون الذي ينحى للاستعمال الشخصي عن طريق أنظمة الفيديو، في تحديد الطريقة التي ينظر بها الأطفال إلى عالمهم الخارجي، وينظمون بموجبها عالمهم الخاص، لكن علماء النفس لا يقفون عند حدود تفتيح وسائل الإعلام لآفاق استكشافية لدى الأطفال، فهي على عكس ذلك تجعل منهم مجرد مستهلكين سلبيين غير قادرين على التخيل والإبداع لحصر ذلك في مشاهد تفرضها صور تعرض على الشاشات.

ويذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، إذ يرى أنّ في تعرض الأطفال لأفلام الفيديو ما يبعدهم عن كل اتصال مع واقعهم لتبني خصائص شخصيات بسلبياتها وإيجابياتها والتوجه في هذه الحالة إلى عالم الانحراف والعنف.

إنّ تطور المرأة عمليا وإسهامها المتزايد في الحياة العملية، جعل من أجهزة السمعي البصري من تلفزيونات أو فيديو، تتبنى وظيفة جديدة ربطها علماء الاجتماع والنفس بوظيفة المربية التقليدية، فتعرضهم هو نتاج فراغ تخلفه الأم عند ذهابها للعمل، وبالتالي يخلص هؤلاء المختصين إلى التأكيد أنه في مثل هذه الحالات تصبح الوسيلة بمثابة الموجه سلبيا أو إيجابيا.

لا ننكر إذن التأثير الكبير لهذه الوسائل على الأطفال لكن طبيعته تحددها الرقابة على نوع المواد المعروضة على أوقات العرض.

---

[1] - جون نويل ديي-التطور التكنولوجي:دافع أم حاجز لتطور المبادلات السمعية البصرية في البحر الأبيض المتوسط ندوة دولية من تنظيم مؤسسة التلفزة الوطنية بالتنسيق مع جامعة الجزائر- أفريل – 2002- ص59

[2] - جون بيار دوديزار - وسائل السمعي البصري للمدرسة- إي ليبس للنشر- 1994- ص16

[3] - جون بيار دوديزار- مرجع سابق- ص41

[4] - كريستين بيرجون- الأعلام الآلي والاتصال- دار النشر برافو للصناعة

[5] - دانييل تيري- تكنولوجيات والاتصال الجديدة- تأثيرها على وسائل الإعلام- أرماطون للنشر- 1998